١

عبدالرحمن بن خلدون
١٣٣٢ ــ ١٤٠٦م

تزخر المكتبة العربية بكتابات كثيرة، متعددة الوجهات والزوايا التي نظر من خلالها الى اعمال ابن خلدون. فالبعض وضعه في أول سلسلة رواد علم الاجتماع والبعض صنفه كمؤرخ ... الخ، والبعض تعاطف مع ماكتب جملة وتفصيلا، بوصفه عربيا، وبالتالي فالتركيز على اسهاماته يعني ابراز الدور العربي الانساني في بناء صرح العلم. ومع التسليم بصحة معظم ماكتب تقريبا، ومع الاعتراف بدوره الجوهري الذي لا ينكر في الدعوة الى انشاء علم الاجتماع، فان محاولة الكتابة عنه في هذا الكتاب تسعى بجانب الاحتفاظ بكل أدواره وأفضاله الى ابراز الدور المجتمعي للعلم، والقضايا التي عبر بها عن موقفه من الانسان والمجتمع عموما. ويقودنا في كل هذا ما ذكره هو في مقدمته عندما قال عن كتابه:

«فجاء هذا الكتاب فذا بما ضمنته من العلوم الغريبة، والحكم المحجوجة القريبة. وأنا من بعدها موقن بالقصور بين أهل العصور، معترف بالعجز عن المضاء في مثل هذا القضاء، راغب من أهل اليد البيضاء والمعارف المتسعة الفضاء، في النظر بعين الانتقاد لا بعين الارتضاء والتغمد لما يعثرون عليه بالاصلاح والاغضاء، فالبضاعة بين أهل العلم مزجاة. والاعتراف من اللوم منجاة والحسنى من الاخوان مرتجاة» (١).

الرجل والظروف:

نشأت أسرة ابن خلدون بمدينة «قرمونة» بالاندلس، التي استقر بها جدهم «خالد بن عثمان» ثم نزحوا منها بعد ذلك الى «اشبيلية» وبدأ نجم أسرته يسطع في عهد الأمير عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن الاموي. وذلك انه في اثناء ولاية هذا الامير اضطربت الاندلس. وكانت «اشبيلية» ــ موطن «ابن خلدون» ــ في مقدمة المناطق الثائرة، واشترك في قيادة الثورة ولد من أحفاد خلدون هو: كريب بن عثمان بن خلدون، الذي استبد بالأمر واستقل بامارة اشبيلية، ولكن حدثت في عهده عدة ثورات انتهت بقتله وسطع نجم الاسرة ثانية في عهد «الطوائف»، ورقي بعض أفرادها الى مراتب الرياسة والوزارة، ولما ضعفت «دولة الموحدين» نزح بنو خلدون الى افريقية وتونس، حيث أكرم «الحفصيون» وفادتهم وتولى الجد الثاني لابن خلدون شؤون دولتهم بتونس، كما ولى جده الاول شؤون الحجابة (٢).

وفي كنف هذه الاسرة ولد عبدالرحمن بن خلدون في تونس في ٢٧ مايو ١٣٣٢، ولما بلغ سن التعلم بدأ في حفظ القرآن وتجويده، ودرس العلوم الشرعية واللسانية والمنطق والفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضية. وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره انقطع عن التعليم، بسبب انتشار مرض «الطاعون» وهجرة معظم العلماء والادباء، وأخذ يتطلع الى الوظائف العامة والسير في الطريق نفسه الذي سار فيه اجداده (٣) فوصل الى أعلى مناصب الحكم في عهود ملوك عديدين، فتولى كتابة السر، وخطة المظالم، وصار وزيرا وحاجبا وسفيرا ومدرسا وقاضيا وخطيبا (٤)، ومن هذا نعرف:

١ ــ أن أسرته كانت قريبة من الحكم والسلطان والسياسة، وكانت مهتمة في الوقت نفسه بالبحث والعلم (٥).

٢ — كان من شأن هذه البيئة الاولى ان بثت في نفس ابن خلدون حب المنصب والجاه من ناحية وحب العلم من ناحية أخرى، وقد كانت تتغلب واحدة على الاخرى. زد على كل هذا انه كان بالرجل نزوع الى المغامرات السياسية، فكان يبادر كعادته الى الانضواء تحت ألوية ذوي السلطان والوزراء والحكام، وقد كانت المغامرات السياسية ترفعه تارة الى أعلى المناصب، أو تفضي به خلف جدران السجون (٦).

وأما عن الملامح الأساسية للظروف المجتمعية التي عاش خلالها، وأراد الكتابة عنها، فكانت تشير الى وجود نمط اقطاعي في مرحلة انتقالية محتفظة ببقايا من النظام العشائري المتفسخ. وكان النمط الاقطاعي آخذا في النمو، متوجها نحو التأثير سلبا في مركزية الدولة، ومعمقا من التناقضات الاجتماعية خاصة في الحواضر والمدن، هذا بجانب انتعاش التجارة في المدن الساحلية المطلة على البحر المتوسط. وهذه الظروف والملامح أثرت في فكره، بوصفها مسرح ملاحظاته ومقارناته واستنتاجاته (٧).

عن علم الاجتماع ونظريته:

١ — يعد «ابن خلدون» أول من نادي بضرورة انشاء علم «العمران البشري» وهذا العمران يعني لديه الاجتماع الانساني وظاهراته. وهو يصوغ موضوع هذا العلم من خلال قوله ان الاجتماع الانساني ضروري، و يعبر الحكماء عن هذا بقولهم: الانسان مدني بالطبع، أي لابد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم وهو معني العمران*(٨).

---

* كل العبارات بين أقواس تشير الى كلام ابن خلدون نصا في مقدمته.

وأولى النقاط التي تبرز هنا هي النظر للمجتمع نظرة شمولية، مع التركيز على ضرورته، وماهو ضروري فيه. فهو لم يدرس الاجتماع الانساني الا بقصد بيان مايلحقه من العوارض والاحوال واحدة بعد أخرى. وهذا يعني أن التركيب الجدلي المعقد من الاحوال في العمران هو المجال المتميز الذي يسعى «ابن خلدون» لكشفه وتهيئة المستلزمات المعرفية له.

٢ ــ وإذا اردنا توضيح السبب الذي من اجله رأى الاجتماع الانساني ضروريا نجد ابن خلدون يقول: «لأن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحقيق حاجته» (٩) ومن ثم فتحصيل الحاجة يعد حجر الزاوية في «الاجتماع الانساني» وضرورته، وهو يسير في التفسير خطوة اخرى فيقول «الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجاته في معاشه، وانهم ــ الناس ــ متعاونون جميعا في عمرانهم على ذلك» (١٠) ومعنى هذا أن الحاجة والعمل مقولتان أساسيتان للوجود الانساني، وبدونهما يستحيل وجود المجتمع البشري.

٣ ــ تتضح النظرة الخلدونية للمجتمع وظاهراته من توجهه العام الذي أكد من خلاله في أكثر من موضع من مقدمته أن العمران البشري حقيقة متعقلة طبيعية، لها علم من العلوم الطبيعية يخصها، علم لا يتجرد عن المادة لا في الذهن ولا في الخارج ... إحدى قواعد البحث فيه الواقعية الاجتماعية المتشخصة بموادها (١١).

٤ ــ يعد تغير العمران حقيقة أساسية في نظرة ابن خلدون الى العمران البشري، فأحوال العالم والأمم وعوائدها ونحلها لا تدوم على وتيرة واحدة انما هو اختلاف على الايام والازمنة وانتقال من حال الى حال، ويرى أن السبب الشائع في

تبدل الاحوال والعوائد هو أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه، كما يقال في الامثال العامية «الناس على دين ملوكهم» (١٢).

٥ ـ يكاد يركز في فهمه وتفسيره لتطور العمران وتغيره على عدة عوامل أساسية ترتبط بالعصبية التي لا تلعب دورا أساسيا في بناء العمران واستمراره، وفي هذا يقرر «أن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج للمتكون، والمزاج في المتكون لا يصلح اذا تكافأت العناصر فلابد من غلب احداها والا لم يتم التكوين». فكأن الصراع القائم على التناقض أساس في تكوين العمران البشري واستمراريته (١٣) كما تلعب السلطة السياسية المتمثلة في «الحاكم» دورا في الحفاظ على العمران، وفي تغييره كما هو مشار اليه في الفقرة السابقة مباشرة.

٦ ـ وأما عن أبرز عناصر وملامح منهجه فيمكن إيجازها فيمايلي:

أ ـ يؤكد «ابن خلدون» أن على الباحث الا يقبل شيئا على أنه حق الا بعد أن يتأكد بوضوح أنه كذلك. أي يجدر به الا يتأثر بآراء مسبقة أو يتخذ من الأساطير وآراء الآخرين غير المؤكدة أساسا لدراسته. ولهذا كان «ابن خلدون» يقرأ لمفكري عصره وأسلافه بقصد المحاورة والكشف، يستشهد ويشكك وينتقد ويصحح وينتقي ويقارن ثم يأتي بالاستنتاج. وهو بصدد هذا يقول في مقدمته «فلا تثقن بمايلقي اليك من ذلك وتأمل الاخبار واعرضها على القوانين الصحيحة يقع لك تمحيصها بأحسن وجه» (١٤).

ب ـ أكد ضرورة الاخذ بمنهج المقارنة بين ماضي الظاهرة وحاضرها، ودراسة تطور الظاهرات والنظم العمرانية دراسة

تاريخية، ذلك لأن العمران متطور متبدل (١٥).

ج ــ يؤكد أهمية وصول علم العمران الى صوغ القوانين التي تحكم العمران لأن الوصول الى هذه القوانين وظيفة من وظائف العلم. وفي هذا المعنى يرى أن الظاهرات العمرانية لا تشذ عن بقية ظاهرات الكون، وأنها محكومة في مختلف نواحيها بقوانين طبيعية تشبه القوانين التي تحكم ماعداها من ظاهرات الكون، كظاهرات العدد والفلك والطبيعة والكيمياء والحيوان والنبات (١٦).

د ــ ركز على أهمية الملاحظة، التي تأتي علميتها من مسلكيها التاليين:

المسلك الاول: ويتمثل في القيام بملاحظات حسية وتاريخية قوامها جمع المواد الاولية لموضوع البحث من المشاهدات ومن بطون التاريخ.

وأما المسلك الثاني: فيتمثل في القيام بعمليات عقلية يجريها على هذه المواد الاولية ويصل بفضلها الى الغرض الذي قصد اليه من هذا العلم، وهو الكشف عما يحكم الظاهرات العمرانية من قوانين (١٧).

والخلاصة أن «ابن خلدون» حدد موضوع العلم بدراسة المجتمع الانساني، ورأي أن هذا الموضوع يتحدد **بماهو ضروزي، وماهو اجتماعي**، وأن هذا المجتمع، ليس ثابت الاحوال، وانما هو دينامي ومتغير، يلعب الصراع بين العصبيات دورا بارزا في تغييره وتنميته، وحدد التوجه المنهجي لهذا العلم بالملاحظة والتحليل والتفسير في اطار تاريخي، حتى يمكن الوصول الى القوانين التي تحكم هذا المجتمع.

لقد تألق ابن خلدون نظريا وعلميا، حين ركز على هذه الابعاد

والعمليات الهامة التي كانت ولا تزال من بين ابرز مايميز علم الاجتماع عن غيره من علوم الانسان والمجتمع. لكن اللافت للنظر أن هذا الطريق الذي سلكه لم يحاول آخرون السير فيه وتنميته، خاصة من العرب، ولو حدث ذلك لكان لعلم الاجتماع العربي مكان ذو شأن لا في تاريخ العلم فحسب، بل في حاضره ومستقبله ايضا.

موقف الرجل من الظروف:

تتحدد علمية الباحث بوضوح الرؤية المنهجية، والغايات العلمية لديه، وتحدد انسانية الباحث بالوظائف الاجتماعية والانسانية لعلمه ولبحثه. واذا أردنا استجلاء ملامح هاتين الخاصتين نجد أن أولاهما كانت أكثر تحققا في اطار ظروف زمانه وتقدم البحث العلمي فيه، ومسرح ملاحظاته التي كانت محددة تقريبا بالمغرب العربي، فقد أكد ضرورة التغير، وضرورة العمل، وضرورة الصراع، وضرورة التوجه التاريخي نحو المجتمع، وأهمية العوامل الاقتصادية، كالمهنة والجاه، في طبائع البشر، وفي تدريجهم الاجتماعي. وأما الوظيفة الثانية لعلمه، والتي تتعلق بموقفه من السياق البنائي الذي احاط به فيمكن ايجاز بعض ملامحها فيما يلي:

١ ــ في تصنيفه للمهن والاعمال وأهميتها ميز بين الضروري والكمالي، وحدد الضروري في أعمال الفلاحة والصناعة والتجارة، وان كان عد الفلاحة **متقدمة عليها**، لارتباطها بالعمل، والانتاج.

٢ ــ يذهب الى أن التجارة وهي أساس اقتصاد البناء البدوي شيء كريه فهي «وان كانت طبيعية في الكسب فالاكثر من طرقها ومذاهبها انما هي تحيلات في الحصول على مابين القيمتين في

الشراء والبيع لتحصل فائدة الكسب من تلك»(١٨).

وهاتان النقطتان تلمحان الى ان ابن خلدون أراد أن يبرز دور الانتاج الزراعي لكونه يرتبط بالعمل المنتج وما يعكسه من قيم ضرورية لاستمرارية المجتمع، وهذا يتسق مع توجهاته نحو ضرورة العمل للانسان ومجتمعه.

٣ــ لقد كان لقربه من ذوي السلطان والقوة، واشتغاله بالسياسة دور أساسي في تحديد موقفه من النظام القائم. فأحكامه على سكان الحواضر، وعلى العرب أحكام قيمية. ومع ادراكه لأهمية عوامل الصراع، وفرص الناس من المعاش، في تشكيل المجتمع وتغييره، الا أنه نظر للسلطة السياسية بوصفها غاية الغايات ونهاية المطاف. فقد أشار الى أنه متى تحققت الضرورة الاجتماعية عند الناس ــ أي تكون المجتمع ــ لابد لهم من وازع تكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة، وأن هذا الملك ليس لكل عصبية وانما الملك على الحقيقة لمن يستعبد الرعية، و يوصي بالاموال و يبعث البعوث ويحمي الثغور ولا تكون فوق يده يد قاهرة، وهذا معنى الملك وحقيقته في المشهور (١٩). و يكاد يتكشف موقفه التام من النظام المحيط به عندما برر الاوضاع والفوارق الطبقية وعدها أمرا طبيعيا محتوما. وفي هذا يقول «ان الجاه متوزع في الناس ومترتب فيهم طبقة بعد طبقة ينتهي في العلو الى الملوك الذين ليس فوقهم يد عالية، وفي السفل الى من لا يملك خيرا ولا نفعا بين أبناء جنسه، و بين ذلك طبقات متعددة .. فقد تبين أن الجاه هو القدرة الحاملة للبشر على التصرف فيمن تحت أيديهم من أبناء جنسهم بالاذن والمنع والتسلط بالقهر والغلبة ليحملهم على دفع مضارهم» (٢٠).

وحصاد هذه الاراء والاقوال يوضح أنه كان في بحثه ساعيا الى تدعيم النظام القائم وتبريره، مؤيدا الفوارق بين الناس، لأمور ليست بأيديهم، ومطالبا الناس بالطاعة «الناس على دين ملوكهم» ومبرزا لأهمية القهر والحكم الفردي والطغيان. ولولا وقوعه في هذا المأزق لكان علم الاجتماع لديه أكثر اكتمالا علميا واجتماعيا، لأنه وان كان قد أقر التغير في الاجتماع الانساني، فقد رفض كل تغير مقصود تاركا إياه فقط لتلقائية وقوعه، ولإرادة الملوك والحكام. وهذا يعني ضمنا المحافظة على ماهو قائم وبالتالي تكريس التخلف. زد على هذا اشارته الى خضوع المجتمع لقوانين طبيعية تعني في مضمونها الاجتماعي أن البشر مهما حاولوا فلن يغيروا شيئا، وفي ذلك اهدار فاعلية الارادة الانسانية عبر التاريخ.